

سورة آل عمران: منهج الثبات بعد التأسيس

مقدمة في بناء سورة آل عمران ومحورها الرئيسية

سورة آل عمران سورةٌ مدنيّةٌ، عدد آياتها مائتان، جاءت بعد سورة البقرة في ترتيب المصحف لا على سبيل المصادفة، بل على سبيل الامتداد والتكميل.

فقد بنت سورة البقرة أمةً جديدةً تشريعًا وهويّةً ومنهجًا، وثبتت معالم “سمعنا وأطعنا”، وأعلنت استقلال القبلة، وأقامت نظام المجتمع المؤمن. فجاءت آل عمران بعد هذا التأسيس لتنتقل بالأمة من مرحلة البناء النظري إلى مرحلة التثبيت والاختبار.

وقد ذكر المفسرون أن صدر السورة نزل في شأن وفد نصارى نجران حين قدموا إلى المدينة في عام الوفود، يجادلون في شأن عيسى عليه السلام. فكان القرآن ينزل في مسجد رسول الله ﷺ جوابًا على أسئلتهم، وتصحيحًا لمفاهيمهم، وتثبيتًا لأصل التوحيد. وفي المقابل، نزل شطرٌ كبيرٌ من السورة بعد أحداث بدر وأحد، حيث انتقلت الأمة من نشوة النصر إلى صدمة الابتلاء، ومن الاطمئنان إلى التمحيص.

ومن هنا يمكن فهم السورة على محورين رئيسيين يدور عليهما بناؤها كله:

المحور الأول: تثبيت العقيدة في ساحة الجدل والشبهة

تبدأ السورة بإعلان المرجعية العليا:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

ثم تثبيت مصدرية الوحي، ثم وضع الميزان الفاصل بين المحكم والمتشابه.

وقد أشار غير واحد من أهل التفسير – ومنهم الرازي وابن عاشور – إلى أن في آية المحكم والمتشابه تعريضًا بمن يتتبع المتشابه ابتغاء الفتنة، وأنها جاءت في سياق مجادلة أهل الكتاب. فالمشكلة لم تكن في غياب النصوص، بل في طريقة التعامل معها؛ إذ إن الزيغ يبدأ من القلب، حين يُترك المحكم البين، ويُعلق الاعتقاد على لفظٍ محتمل.

ومن هنا يُذكر المثال للتوضيح المنهجي: لو تعلق إنسان بلفظٍ محتملٍ في شأن عيسى عليه السلام، وجعله أصلًا يبني عليه اعتقادًا، وأعرض عن عشرات الآيات المحكمة التي تقرر عبوديته لله، كان ذلك مثالًا على قلب الميزان. فالقاعدة القرآنية واضحة: المحكم أصل، والمتشابه يُرد إليه، ومن قلب هذه المعادلة بدأ الانحراف عند أهل الكتاب.

فالمحور الأول من السورة هو حماية البوصلة العقديّة، وتثبيت المنهج في الفهم، وكشف أن الحق قد يكون ظاهرًا، لكن الهوى يبحث عن تأويلٍ يخفف وطأته.

المحور الثاني: اختبار الثبات في ساحة الميدان

ثم تنتقل السورة – من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ { 121 } – إلى تحليل أحداث أحد، بعد أن كانت بدر قد سبقتها نصرًا وتمكينًا. وهنا يتجلى الوجه الآخر من الثبات؛ فليس الثبات في الفكر وحده، بل في الطاعة حين تتزاحم الشهوات، وفي الصبر حين تنقلب الموازين.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

فهذه الآيات لا تسرد التاريخ، بل تفسر السنن: سنة التداول، وسنة التمحيص، وسنة الفرز. وقد قرر أهل التفسير أن الابتلاء ليس خذلانًا، بل تمييزًا، وأن الله لا يترك الصف مختلطًا حتى يظهر الصادق من المدعي.

ومن هنا يظهر البناء الكامل للسورة:

- تثبيت العقيدة أمام الجدل الخارجي.
- اختبار الطاعة أمام الفتنة الداخلية.
- تحذير القلب من الزيغ.
- وتحذير الصف من الانهيار.

فالبقرة وضعت الأساس وأعلنت الطاعة،

وآل عمران جاءت لتعلم الثبات على تلك الطاعة، وتختبر صدقها في ساحة العقيدة وساحة القتال.

إنها سورة التثبيت والتمحيص معًا؛ تثبيت المرجعية في الفكر، وتمحيص الصف في الميدان.

ومن هذين المحورين الكبيرين تتفرع المقاطع المتتابعة في السورة، وكل مقطع يعود في النهاية إلى سؤال واحد:

هل يبقى القلب مستقيمًا حين تشتد الشبهة؟

وهل تبقى القدم ثابتة حين تشتد الفتنة؟

هذا هو خيط السورة،

وهذا هو ميدانها.

والله أعلم.

(1-10) تثبيت المرجعية قبل الدخول في الجدل

بعد أن قررت المقدمة أن السورة تدور على محور تثبيت العقيدة واختبار الثبات، يأتي هذا المقطع ليضع الأساس الذي سيبنى عليه كل ما بعده.

تبدأ السورة بالحروف المقطعة: ﴿الم﴾. وكما أشار كثير من المفسرين، فإن مجيء هذه الحروف في السور التي يعقبها ذكر الكتاب فيه تنبيه إلى أن هذا القرآن الذي سيحتكم إليه في كل جدل هو مؤلف من هذه الحروف التي يعرفها العرب، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله. فقبل أن تُناقش قضية عيسى، وقبل أن تُكشف شبهة، تُذكر الأمة أن مرجعها كتابٌ معجز، لا كلام بشر.

ثم يأتي الإعلان الأعظم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

وهنا تثبيت المرجعية العليا قبل أي حوار. فالذي سينزل الكتاب، والذي سيحكم بين المختلفين، هو الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا يضل ولا يغلب. وقد نبّه الرازي إلى أن ذكر "الحي القيوم" هنا مناسبٌ لسياق الرد على من غلا في البشر؛ لأن من كان حيًا قيومًا بذاته لا يحتاج إلى ولدٍ ولا شريك.

ثم يُذكر إنزال الكتاب: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

فالكتاب ليس قطيعةً مع ما قبله، بل تصديقًا له في أصله الصحيح. وهذا يضع أساس الحوار مع أهل الكتاب: القضية ليست صراع ديانات، بل ردٌّ إلى أصل الوحي الذي انحرف عنه البشر.

ثم تأتي الآية المفصلية التي تُعدّ مفتاح المقطع كله:

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾

هنا تُوضع قاعدة التعامل مع النص قبل الدخول في أي نقاش. فالمحكم هو الأصل الذي يُرجع إليه، والمتشابه يُفهم في ضوءه. وقد بين ابن عاشور أن وصف المحكمات بأنهن "أم الكتاب" يدل على أن المرجع عند الاشتباه هو الواضح البين، لا المحتمل.

ثم يأتي التحذير: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾

فالخلل ليس في النص، بل في القلب. والانحراف لا يبدأ من قلة الدليل، بل من رغبةٍ في تتبع ما يوافق الهوى. ولذلك قال: ﴿ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾، أي يجعلونه أصلاً، ويتركون المحكم الذي هو أم الكتاب.

وهنا يظهر أول قانون في السورة:

الزيغ يبدأ من طريقة الفهم، ومن فساد المنهج قبل فساد الموقف.

ثم يأتي الدعاء الذي يُعلم الأمة كيف تحتمي من هذا المصير:

﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾

فالزيغ ممكن بعد الهداية، والثبات نعمة تحتاج سؤالاً واستمداً.

ويُختم المقطع بتذكير عظيم:

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

فالقضية ليست جدلاً فكرياً مجرداً، بل مصبراً يُفصل فيه يوم الجمع.

بهذا المقطع الأول تُحصن البوصلة قبل أن تُخاض المعركة العقديّة. يُثبت مصدر الوحي، ويُضبط منهج الفهم، ويُحذّر من زيغ القلوب، ويُربط كل ذلك بيوم الحساب. ومن لم يثبت هنا لن يثبت في جدل نجران، ولا في مدرسة أحد.

وهكذا يبدأ المحور الأول: تثبيت العقيدة من الداخل قبل مواجهة الشبهة من الخارج.

المال والجاه... أحد أسباب التردد عن الحق

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾

تقرر الآية حقيقةً مطلقة: أن المال والولد – وهما أعظم ما يتكئ عليه الإنسان – لا يغنيان عن صاحبهما إذا اختل ميزانه مع الله. وقد ذكر أهل التفسير أن هذه الآية عامة في كل من اغترّ بقوته أو ماله أو مكانته.

وبالنظر في مسار القرآن كله، نرى أن هذا المعنى يتكرر مع قريش في مكة، ومع اليهود، ومع النصارى، ومع الأحزاب؛ فغير قليل ممن قامت عليهم الحجة كان يعلم من دلائل النبوة ما يقربه من الإذعان، لكن اتباع الحق كان يعني اضطراب جاهٍ، أو سقوط منزلةٍ، أو خسارة امتيازٍ دنيوي.

فالزيغ قد لا يبدأ بإنكار الدليل، بل بالخوف من خسارة المكسب.

ومن هنا يتصل هذا الموضوع اتصالاً مباشراً بما قبله:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾

فالمال والولد من أعظم ما يُغدي هذا الزيغ إذا لم يُضبط القلب بميزان الآخرة.

(14-17) قانون ثانٍ: لماذا يزيغ القلب؟ الشهوة قبل الشبهة

ثم ينتقل الخطاب انتقلاً تربويًا دقيقًا. بعد أن تكلم عن الكافرين وعاقبتهم، عاد إلى أصل الداء الذي قد يفتن كل إنسان:

﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾

هنا لا يصف فئة بعينها، بل يكشف طبيعة بشرية؛ فالزيغ يبدأ من الداخل، من تعلقٍ بالدنيا، ومن رغبةٍ في تخفيف التكليف.

ثم يُقدّم القرآن الميزان المقابل: ﴿قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾

فكأن السورة تقول: لا تكتفِ بمعرفة أن الشهوة فتنة، بل اعرف البديل الذي يصحح اتجاه القلب: جناتٌ ورضوانٌ ونعيمٌ باقٍ.

ثم تُذكر صفات المتقين: الصابرين، الصادقين، القانتين... وهذا ليس تزيينًا للفضيلة فقط، بل خطة نجاة من مادة الزيغ. فالذي لا يربِّي قلبه على الصبر والصدق سيجد نفسه يومًا ما يتأول النصوص ليوافق هواه.

وهنا يتضح اتصال هذا المقطع بالمقطع المتصل بديعًا:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾..... ومادته غالبًا: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾.

(18-20) شهادة التوحيد ورفع أهل العلم

بعد أن كشفت الآيات السابقة جذور الزيغ في المال والشهوة والأمان، يعود السياق ليغرس الأصل الذي يُثبت القلب ويقيم الميزان.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

هذه الآية ليست تقريرًا نظريًا، بل مشهد شهادة عظمى: الله يشهد، والملائكة يشهدون، وأولو العلم يشهدون.

وقد نصَّ أهل التفسير على أن في عطف ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ بعد ذكر الملائكة تشريفًا عظيمًا لأهل العلم؛ إذ قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وجعلهم شهودًا على أعظم حقيقة في الوجود: توحيده سبحانه. فالعلم هنا ليس معرفةً عابرة، بل شهادةً راسخة قائمة على بصيرة.

ثم انظر إلى تمة الآية: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾؛ أي أن توحيده ليس مجرد سلطان، بل عدلٌ مطلق، وحكمةٌ كاملة، ولذلك خُتمت بـ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فالعزة تمنع من الظلم، والحكمة تمنع من العبث.

ثم يأتي البيان الحاسم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

لا تعددية في أصل التوحيد، ولا مساحات رمادية في جوهر الإيمان.

ثم يكشف سبب الانحراف: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

لم يكن الاختلاف لغياب الحجة، بل بغيًا؛ حسدًا، وطلبَ علوٍّ، ومنافسةً على دنيا.

ثم يختم هذا السياق بقوله: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ ۗ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾

هنا ينتقل الخطاب من بيان الحقيقة إلى الموقف العملي. بعد قيام الشهادة ووضوح العلم، يبقى السؤال واحدًا: هل تُسلم الوجه لله؟

وهكذا يكتمل البناء في هذا الموضوع: الزيغ يبدأ من القلب، الشهوة تُغديّه، المال لا ينفع صاحبه، العلم يشهد بالتوحيد، الدين واحد، والبغي سبب الاختلاف. ومن لم يثبت هنا في ساحة الشهادة والعلم لن يثبت إذا دخل الجدل التفصيلي، ولا إذا جاء امتحان الميدان.

(26-27) من شهادة التوحيد إلى تحرير القلب من خوف الملك

بعد أن قررت الآيات شهادة التوحيد، ورفعت شأن أهل العلم، وبيّنت أن سبب الاختلاف هو البغي بعد مجيء العلم، يأتي هذا الإعلان العظيم، لا بوصفه دعاءً معزولاً، بل قاعدةً كونيةً تُمهّد لما بعدها:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۗ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۗ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا الموضوع يحرق القلب من وهم عميق كان سبباً في زيغ من قبلهم: وهم أن الملك ثابت بأيدي الناس، وأن الجاه والسلطان إذا زالا فلا عودة لهما. فجاءت الآية لتعيد الميزان إلى موضعه: الملك كله لله، يؤتیه من يشاء وينزعه ممن يشاء، والعز بيده، والرزق بيده، وتداول الليل والنهار بيده، كما تداول الدول والأيام بيده.

فإذا كان الملك بيده، فلماذا يُخاف على الجاه؟ وإذا كان العز بيده، فلماذا يُسَاقم على الحق؟ وإذا كان الرزق بيده، فلماذا يُترك اليقين لأجل دنيا زائلة؟

ولهذا كانت هذه الآية مقدمةً مباشرةً لما بعدها من آيات الولاء؛ فهي تبني في قلب المؤمن أصلاً عظيماً قبل أن تُخاطبه بالتوجيه العملي. فكأن السورة تقول له: لا تتخذ الكافرين أولياء خَوْفاً على مالٍ أو ملكٍ أو مكانة؛ فإن الذي يملك ذلك كله هو الله. فالآية ليست تقريراً لعقيدة مجردة، بل تحريراً للولاء قبل أن يُذكر حكم الولاء، وتثبيتاً للقلب قبل أن يُختبر في ميدان الانحياز.

(28-32) الولاء... والتشريف بالإيمان لا بالدنيا

بعد أن قررت الآيات أن الملك كله لله، وأن العز بيده، وأن الرزق بيده، جاء التوجيه العملي المباشر:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ۗ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

النهى هنا ليس علاقةً اجتماعية، بل مسألة اتجاه وانتماء. فالتعبير ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يمس أصل الهوية، لأن الولاء انعكاس لما في القلب من اعتمادٍ وخوفٍ ورجاء. ومن علم أن الملك بيد الله، وأن العز منه، لا يعلق قلبه بغيره خَوْفاً على جاهٍ أو طمعاً في سلطان.

ثم يعمق السياق المعنى بقوله: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ﴾

فالولاء قبل أن يكون موقفاً ظاهراً هو توجهٌ قلبي، والله مطلع عليه.

ثم ينتقل إلى مشهد الحساب: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ...﴾

ليُذَكَّرَ بأن الاختيارات القلبية والعملية ستُعرض بلا ستر.

ثم يأتي الميزان الجامع: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾

فالتشريف ليس بالمال، ولا بالجاه، ولا بالانتماء الدنيوي، بل بالإيمان والاتباع. ومن أطاع الله ورسوله رفعه الله، ومن تولى فإن الله لا يحب الكافرين.

وهنا يتأكد المعنى الذي تقرر في قوله: ﴿مَالِكِ الْمُلْكِ... تُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾؛ فالعز الحقيقي عزة الإيمان، والرفع الحقيقي رفع الاصطفاء، لا رفع الجاه الدنيوي.

وقفة في اختلاف خاتمة التحذير

يتكرر قوله تعالى: ﴿وَيَحذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ في هذا السياق، لكن الخاتمة تختلف.

في آية الولاء حُتم التحذير بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾؛ لأن المقام مقام اتجاه وانتماء، ومن غير مساره تغير مصيره.

وفي آية عرض الأعمال حُتم بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾؛ لأن المقام مقام تقصير في العمل مع بقاء الأصل، فباب التوبة مفتوح، والرأفة حاضرة.

فالتغيير في أصل الولاء أخطر من الزلة في العمل، والانحراف في الهوية أعظم من ضعف الأداء.

وهكذا تربي السورة القلب على ميزانٍ دقيق: خوفٌ عند مساس الأصل، ورجاءٌ عند وقوع التقصير مع بقاء الإيمان.

(41-33) الاصطفاء... تشريف بالعبودية وسنة بالابتلاء

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ (33-34)

بعد تقرير أن الملك بيد الله، وأن العز بيده، وأن التشريف بالاتباع لا بالجاه، جاء الحديث عن الاصطفاء. فالذي يملك الملك هو الذي يختاره، والذي يرفع هو الذي يصطفي. والاصطفاء هنا قاعدة عامة: أن الله يختار من عباده من يشاء لحمل رسالته، لا باعتبار مالٍ ولا سلطان، بل باعتبار إيمانٍ وصدق.

وهذا المعنى جاء عامًا في سياق السورة، لكنه يحمل خصوصية ظاهرة من جهة السياق؛ إذ وردت هذه الآيات في مقام مخاطبة نصارى نجران، فجاء ذكر عيسى عليه السلام ضمن سلسلة اصطفاء ممتدة: آدم، ثم نوح، ثم آل إبراهيم، ثم آل عمران. فليس عيسى بدءًا في الاصطفاء، بل حلقة في نسقٍ إلهي متصل.

ثم ينتقل السياق من القاعدة إلى المشهد:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ (35)

الاصطفاء يبدأ من بيتٍ عابد، ومن نذرٍ خالص، ومن قلبٍ يريد لله لا للدنيا. لا جاه، ولا سلطان، بل إخلاصٌ سابق.

ثم تأتي المفارقة التي تكشف أن تدبير الله لا يتبع تصورات البشر: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴿٣٦﴾ (36)

كان في ظاهر العرف أن الذكر أليق بالخدمة في المحراب، لكن الاصطفاء ليس تابعًا لتصورات الناس، بل لاختيار الله.

ثم قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ (36)

فقبل أن تظهر المعجزة، بدأ التحصين.

ثم يأتي التعبير الجامع: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (37)

وهنا لفظة بيانية جميلة: اجتماع "أنبتها" مع "نباتًا" يوحي بعناية ظاهرة من الله مع سلامة فطرة من الداخل؛ ليست نشأة عادية، بل إنبات رباني مقصود. قبول، ثم إنبات، ثم كفالة؛ تربية متدرجة قبل الاصطفاء الأكبر.

ثم يظهر مشهد الرزق: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (37)

هذا الرزق ليس مجرد كرامة، بل تربية. الله يعلم مريم ومن كفلها أن الرزق لا ينحصر في السبب الظاهر، ويربي القلوب على أن ترى المسبب قبل السبب.

ثم تأتي لحظة التحول: ﴿هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ (38)

كلمة "هنالك" ليست مجرد ظرف، بل لحظة يقظة قلبية؛ رأى قدرة الله تتجاوز المألوف، فتحرر قلبه من أسر العادة، وقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (38)

شيخ كبير، وزوجة عاقر، لكن اليقين تحرك حين رأى أن الله يرزق بغير حساب.

ثم تأتي البشارة بيحيى (39-40)، ويتعجب زكريا كما ستتعجب مريم بعد قليل. وهنا تظهر سنة دقيقة: المؤمن يأخذ بالأسباب، لكنه يبقى مرتبطًا بها في تفكيره البشري، فيوظفه الله أحيانًا بخرق العادة، ليعيد قلبه إلى المسبب وخالق الأسباب.

ثم نصل إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (42)

فلاصطفاء الأول يفهم في سياق الحدث الخاص الذي لا يتكرر لغيرها، والاصطفاء الثاني تشريف ورفع منزلة. هذا اصطفاء حدث، وذاك اصطفاء مقام.

غير أن الاصطفاء في ميزان القرآن لا يأتي بلا ابتلاء. فالتشريف والاصطفاء والاشتباء لا يسبقها إلا تمحيص؛ ليس الاصطفاء رفاهاً، بل مسؤولية، وليس الرفع زينة، بل تكليف. كما قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

(51-43) من الاصطفاء إلى الرسالة... ومن المعجزة إلى التوحيد

قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (43)

بعد أن قرر الله اصطفاء مريم، لم يترك المعنى في مقام التشريف المجرد، بل أعقبه مباشرة بالأمر بالعبودية. فكلما عظم الاصطفاء، ازداد السجود. الرفع في ميزان القرآن لا يخرج عن العبودية، بل يثبتها. وهذا تصحيح مبكر لأي فهم قد يربط الاصطفاء بالخروج عن البشرية أو التعالي على مقام العبد.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (44)

في سياق مخاطبة نصارى نجران، هذه الآية ليست مجرد توثيق تاريخي، بل إعلان مصدر. تخيل رسول الله ﷺ في مسجده، بين أصحابه، وأمام وفد من علماء النصارى، يتلو عليهم تفاصيل دقيقة لم يشهدها، ولم يتلقها عن بشر، ثم يقرر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. وفي هذا تأكيد لمعنى السورة: أن محمدًا ﷺ - كما عيسى - بشرٌ مصطفى، لا إلهٌ ولا شريك، وإنما عبدٌ يوحي إليه.

ثم تبلغ القصة ذروتها: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٥١﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (46-45)

يُذكر الاسم، والنسب، والوصف، والمقام؛ ليبقى عيسى داخل نسق الاصطفاء البشري الممتد. فالتعبير ﴿كَلِمَةً مِنْهُ﴾ يُفهم في ضوء قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ فهو كلمة الخلق، لا جزء من الإلهية. والسياق نفسه يقيد المعنى: “ابن مريم”، “من الصالحين”، وكلها أوصاف بشرية رسالية.

ثم يأتي التعجب الطبيعي: ﴿قَالَتْ رَبِّ أُنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ (47)

وجاء الجواب جامعًا مانعًا: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ؛ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

ثم ينتقل البيان من معجزة الميلاد إلى وظيفة الرسالة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (48-49)

ثم تُذكر معجزاته: خلق كهيئة الطير، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى... لكن مع القيد المتكرر الحاسم: ﴿يَاذُنِ اللَّهِ﴾. وتكرار هذا القيد تثبت عقدي مقصود؛ لئلا تُفهم المعجزة استقلالاً عن الإذن الإلهي.

ويبلغ البيان قمته في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَدًى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (51)

هذه خلاصة الحجة: الذي اصطفاه الله، وأيده بالآيات، ورفع مقامًا، هو نفسه الذي يعلن التوحيد الخالص: الله ربي وربكم. فليس في الاصطفاء تأليه، ولا في المعجزة خروج عن العبودية، بل الرسالة كلها تعود إلى كلمة واحدة: اعبدوا الله.

وهكذا يكتمل النسيج في هذا المقطع: اصطفاء بلا تأليه، ومعجزة بلا استقلال، وتشريف لا يخرج عن العبودية، ووحى يثبت الرسالة، وتوحيد هو الغاية.

(52-63) من إقامة البرهان إلى الحسم... وآية المباهلة

بعد أن أعلن التوحيد الصريح على لسان عيسى في (51): ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾، انتقل السياق إلى بيان مواقف القوم من هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ (52)

فالحق يُبين، لكن الاستجابة تختلف، وهذا ينسجم مع ما قررته السورة منذ مطلعها: أن الزيغ ليس نقص بيان، بل انحراف قلب.

ثم قرر سبحانه سنة المواجهة: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (54)

ثم جاءت الآية المحكمة الجامعة في الرد العقلي: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (59)

هذا قياس واضح لا لبس فيه: إن كان خلق عيسى بلا أب موجبًا للغلو، فأدم أولى، لأنه خلق بلا أب ولا أم. فالخالق واحد، والطريقة لا تغير الحقيقة. بهذه الآية أُقيم البرهان وانتهى مجال الاشتباه العقلي.

ثم بعد أن جاء العلم جاءت لحظة الحسم: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (61)

هذه آية المباهلة، وخاتمة هذا الحوار بعد قيام الحجة البالغة التي لا يختلف في قوتها ووضوحها اثنان. فبعد البيان والبرهان، يُدعى المخالف إلى مقامٍ يفصل النزاع: أن يضع نفسه وأهله تحت دعاء اللعنة إن كان كاذبًا. وهذا إعلان يقين؛ إذ من كان شاكًا لا يُقدم على مثل هذا، ومن لم يكن واثقًا من صدقه لا يعرض أبناءه ونساءه لهذا المقام.

وقد ثبت في كتب السيرة والتفسير أن وفد نجران لما رأوا جدية النبي ﷺ وخروجه بأهل بيته للمباهلة تراجعوا واختاروا المصالحة، ولم يدخلوا في المباهلة. فهنا انتهى البيان وانفصلت الصفوف: آمن من آمن، وكفر من كفر، ولكن بعد وضوح كامل،

وبعد إقامة حجة لا لبس فيها، ليكون الهلاك عن بيعة والنجاة عن بيعة، كما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِي وَيَخَيَّرَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِي﴾.

ثم ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿62﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (62-63)

فالقصاص هنا ليس سردًا تاريخيًا، بل توحيد يُقام عليه البرهان، والحسم ليس غلبة سياسية، بل إقامة حجة. فإن تولوا بعد هذا البيان فقد قامت عليهم البيعة.

بهذا تنتهي وحدة الرد العقدي على نصارى نجران في صورتها المحكمة: عرض الحقيقة، ثم إقامة البرهان، ثم الحسم بالمباهلة، ثم الفصل بين الصفوف.

(120-64) من الحجة إلى كشف الادعاء... تمهيداً لبناء الهوية

بعد الحسم في آية المباهلة، واصلت السورة كشف جذور الانحراف عند أهل الكتاب حتى لا يبقى لبس في مصدر الخلل.

بدأ الخطاب بالدعوة الجامعة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ (64)

فالأصل دعوة إلى التوحيد لا قطيعة. لكن حين يُرفض الأصل تُرسم الحدود: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. هوية واضحة دون عدوان ودون تمييز.

ثم ينتقل النص إلى إسقاط دعوى الانتساب إلى إبراهيم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ (65)

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (67)

هنا يُهدم الادعاء من أساسه؛ فالانتساب الحق ليس تاريخًا يُحتكر، بل منهجًا يُتبع. وإبراهيم ليس ملكًا لطائفة، بل رمزًا للتوحيد الخالص. ومن ثم قررت السورة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (68)

فالولاية لإبراهيم ولاية عقيدة لا رابطة دم ولا ادعاء لفظي.

ثم تكشف السورة النوايا والمواقف:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ (69)

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ (71)

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ﴾ (72)

لم يعد الحديث هنا عن خطأ عقدي فقط، بل عن أسلوب تشويش متعمد: خلط، وكتمان، ومكر لإضعاف الصف الداخلي للمؤمنين. وهذا تطور مهم في البناء: من بيان الضلال إلى كشف المكر.

ثم تقرر السورة أن المسألة تتجاوز "الاختلاف" إلى موقفٍ قلبي ظاهر:

﴿إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِن تَصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (120)

حزنٌ لخير المؤمنين، وفرحٌ لضرهم. وهذا تمهيد صريح لما سيأتي من تحذير.

ثم تأتي النقلة التربوية الحاسمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَتَهُ مَن دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمُ حَتَّىٰ﴾ (118)

لم تأتِ هذه الآية فجأة؛ سبقتها دعوة، ثم حجة، ثم كشف ادعاء، ثم كشف نية، ثم كشف مكر، ثم بيان موقف قلبي تجاه المؤمنين. هذا بناء تدريجي حتى يصل المؤمن إلى نتيجة طبيعية: لا يصح أن يتخذ من يكتم الحق ويلبس الباطل بطانةً ومحلّ ثقة.

وهكذا يتبين أن موضوع الولاء والبراء في السورة لم يُطرح ابتداءً كحكمٍ مجرد، بل بُني على معطيات واضحة: بيان التوحيد، ثم إقامة الحجة، ثم كشف الادعاء الباطل، ثم كشف النية والمكر، ثم بيان الموقف القلبي تجاه المؤمنين... ثم جاءت النتيجة: حفظ الهوية وحماية الصف.

وهنا يظهر جمال البناء القرآني؛ فالسورة لا تُنتج قطيعة عاطفية، بل تبني موقفًا عقديًا واعيًا. ليست المسألة كراهية عمياء، بل إدراكٌ واعٍ لطبيعة الصراع العقدي.

وهذا كله قبل أن تنتقل السورة إلى المحور الثاني: الاختبار في الميدان، حيث سيُختبر المؤمنون أنفسهم في الثبات، لا أمام أهل الكتاب فقط، بل أمام أنفسهم في مدرسة أحد.

(121-160) من وضوح العقيدة إلى امتحان الثبات

قال تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. (121)

الانتقال هنا مقصود ومهيب. من جدالٍ في المسجد إلى صفوفٍ في الميدان. من إقامة الحجة على أهل الكتاب إلى اختبار صدق المؤمنين أنفسهم. كأن السورة تقول: بعد أن تبين الحق، هل تثبت عليه؟ فليس كل من عرف الطريق يثبت في السير، ولا كل من أدرك الحقيقة ينجح في الامتحان.

ثم تكشف السورة أن موطن الضعف قد يكون من داخل الصف لا من خارجه:

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. (122)

الطائفتان من المؤمنين، والسورة لا تخفي ذلك؛ لأن التربية لا تقوم على التجميل، بل على المواجهة. ومع هذا الضعف جاء التثبيت: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أي أن الولاية الإلهية قد تدرك العبد في لحظة اضطراب، فترده إلى الثبات قبل السقوط.

ثم يأتي تذكير بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾. (123)

بدر كانت درسًا في أن النصر من عند الله لا من العدد ولا من العدة. وأحد ستكون درسًا في أن المخالفة تُفسد ثمار النصر، ولو كانت النية في أصلها صادقة.

ثم تتوالى الآيات لتضع شرط النصر في كلمتين:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ﴾ (124)،

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾. (125)

النصر ليس وعدًا مطلقًا، بل وعدٌ مشروط. وهذا امتدادٌ طبيعي لما سبق في القسم العقدي: الانحراف عن المنهج له أثر، والزيغ يبدأ من الداخل، ثم تظهر آثاره في المواقف.

ثم تأتي الآية الجامعة التي تشرح ما جرى في أحد بكلماتٍ لا تحتاج شرحًا طويلًا:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾. (152)

ثلاث كلمات تُلخص الانكسار: فشلتكم، تنازعتكم، عصيتم. لم يكن الخلل في وضوح العقيدة، بل في لحظة ضعفٍ أمام الدنيا. وهنا يظهر الارتباط العميق بالمحور الأول: السورة التي حذرت من فتنة الشهوات والمال، جعلت الامتحان يأتي عند أول بريقٍ للغنيمة. ثم جاءت الجملة الفاصلة التي تقر ما وراء الحدث:

﴿مَنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. (152)

ليس كفرًا مقابل إيمان، بل درجات داخل الصف الواحد. وهذا هو التمحيص الحقيقي؛ تمييزٌ في الإرادة والمقصد، قبل أن يكون تمييزًا في الشعار.

ثلاث طبقات من الخطاب التربوي في مدرسة أحد

ومن دقائق التدبر في مشهد أحد أن خطاب القرآن للمؤمنين لم يأت على مستوى واحد، بل جاء على ثلاث طبقات بحسب تفاوت المواقف في لحظة الفتنة؛ فالسورة تُربي الصف لا بمجرد سرد الحدث، بل بتوجيه الخطاب "على قدر الحال."

الطبقة الأولى: خطابٌ شديدٌ في شأن من انتكسوا ولحقوا بأهل النفاق، أو فترت عزائمهم حتى انكشف داخل الصف. وهذا يظهر في مواضع بيان التمييز والفرز، وأن الشدة تُظهر ما كان مستتراً:

﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ (167)،

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. (179)

فليس المقصود التشهير، بل تنظيف الصف وإعادة تعريف الصدق على أرض الواقع.

الطبقة الثانية: خطابٌ عتابٍ للمؤمنين الذين وقع منهم خللٌ ساعة الفتنة، لا كفراً ولا نفاقاً، ولكن ضعف طاعةٍ وتقديماً للدنيا في لحظةٍ بعينها؛ وهنا يجيء العتاب بقدر الذنب، لا بإسقاط الأصل. ومن أوضح ذلك قوله تعالى في سياق الفرار والاضطراب:

﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. (153)

فالعتاب هنا يشرح الدرس: المخالفة تُورث ألمًا تربويًا، لا انتقامًا. و"الغمُّ بغمٍّ" يفهم على ضوء السياق: غمٌّ ما وقع من الهزيمة والاضطراب، ثم غمٌّ آخر أشد حين شاع خبر إصابة النبي ﷺ أو موته؛ فاجتمع غمُّ الحدث وغمُّ القلب، حتى يُنتزع من الداخل التعلق بالسبب، ويعود الصف إلى أصل المعنى: الطاعة والثبات.

ثم يأتي مشهد الرحمة الخاصة التي تُنزل السكينة على طائفة دون طائفة، لأن القلوب ليست سواء:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾. (154)

فالنعاس هنا ليس مجرد حالة جسدية، بل علامة سكونية ورحمة يضعها الله حيث يشاء. والفرق واضح: طائفة غشيتها الأمانة، وطائفة استغرقتها الهواجس والظنون. ورحمة الله إذا أرسلها فلا ممسك لها، وإذا أمسكها فلا مرسل لها من بعده.

الطبقة الثالثة: خطابٌ تسليفيٌّ ورفع معنوياتيٍّ ومدحٍ وتثبيتٍ للفئة الصابرة التي ثبتت مع رسول الله ﷺ؛ حتى لا يتحول الدرس إلى انكسار دائم، بل إلى طاقة إيمان وعزيمة:

﴿إِن يَمَسُّكُمُ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (140)،

﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

(146).

ثم يضع القرآن على لسانهم "دعاء المنهج" عند الشدة:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. (147)

هذا هو قلب مدرسة أحد: لا تعليق للناتج على الظرف، بل رجوعٌ إلى الله، واعترافٌ بالتقصير، وسؤالٌ للثبات، ثم طلب النصر.

وبهذا تتضح "لغة السورة" في هذا المشهد:

- ذمٌ لمن انتكس ومال،
- وعتابٌ لمن أخطأ وهو من أهل الإيمان،
- وتسليفيٌّ ومدحٌ وتثبيتٌ لمن صدق وصبر وثبت.

ومن عرف هذه الطبقات، قرأ أحد قراءةً تربويةً لا تاريخية: تربية للقلوب، وفرز للصف، وتثبيت للثابتين، حتى يكون الابتلاء طريقًا للمتكمين لا بوابةً لليأس.

ثم تُعيد السورة توازن القلوب بكلمةٍ تشد الظهر بعد العثرة:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (139)

العلو ليس نتيجة معركة واحدة، بل ثمرة ثباتٍ طويل، ومحصلة رجوعٍ صادق بعد كل زلة.

الرابط بين المحورين يتضح هنا بجلاء:

في القسم الأول بُنيت العقيدة، ورُسمت الهوية، وكُشف مسار أهل الزيغ. وفي هذا القسم يُكشف الضعف الداخلي.

- هناك كان الحديث عن الزيغ العقدي، وهنا عن الزيغ السلوكي.
- هناك حُسم التوحيد، وهنا يُختبر صدق التوكل والطاعة.
- هناك قيل: لا تغتروا بالمال، وهنا سقط بعضهم عند أول غنيمة.

وكان السورة تُربي الأمة على أمرين متلازمين: سلامة التصور، وصحة السلوك؛ فإن اختل أحدهما ظهر الخلل.

(160-140) قانون التداول... ومدرسة أحد في التمحيص والتطهير

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾. (140)

بهذه الآية يرفع القرآن نظر المؤمنين من جراح أحد إلى سنين أوسع تحكم حركة التاريخ. فالمعركة ليست حادثةً معزولة، بل جزء من قانون التداول؛ يومٌ لك ويومٌ عليك.

والنصر ليس امتيازًا دائمًا، كما أن الهزيمة ليست قدرًا مقيماً، وإنما هي محطات تمحيصٍ يُريُّ الله بها عباده.

ثم يبيِّن الغاية من هذا التداول: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾. فالإبتلاء ليس مجرد اختبارٍ للقدرة، بل كشفٌ للحقيقة؛ ليظهر الصادق من المدعي، ويتميز الثابت من المتردد.

ويأتي الخطاب في لحظةٍ كان يمكن أن تتحول إلى انهيارٍ نفسي:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (139)

العلو هنا ليس علوً نتيجةً آنية، بل علوً ميزانٍ وإيمان. فمن ثبت قلبه على التوحيد لا يُقاس بميزان الجولة الواحدة، بل بميزان العاقبة.

ثم يهتز الصف حين شاع خبر مقتل النبي ﷺ، فجاء التثبيت العقدي الحاسم:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. (144)

كأن السورة تعيد الأمة إلى أصلها: الرسالة لا تقوم بشخص، بل بمنهج. ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت.

ثم يقرر ميزاناً يحزر القلوب من الخوف: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾. (145)

لا موت قبل أجله، ولا حياة بعد قدرها؛ فمن فهم هذا ثبت في الميدان.

ثم يكشف القرآن الخلل الداخلي بوضوحٍ لا لبس فيه :

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ... حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾. (152)

فشلٌ في الإرادة، ثم تنازعٌ في القرار، ثم معصيةٌ للأمر. ولم يكن السبب غموض التوجيه، بل لحظة ضعفٍ أمام بريق الدنيا: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

هنا يظهر أن المعركة الحقيقية لم تكن عند سفح الجبل، بل في القلب.

ويصف القرآن مشهد الفرار في أقصى صوره: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾. (153)

كان اضطراباً جسدياً سبقه اضطرابٌ داخلي، فجاء التأديب التربوي:

﴿فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعِمَ﴾.

غمُّ الهزيمة والجراح، ثم غمُّ الشائعة التي زعزت القلوب. لم يكن ذلك انتقاماً، بل تربيةً تُعيد ترتيب الداخل، وتنتزع من النفوس تعلقها بالأسباب وحدها، ليقوم الميزان على الطاعة والثبات.

ومع هذا العتاب لم يُغلق باب الرحمة، بل جاء العفو والتضميد وإعادة الثقة:
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ... فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. (159)
عفوٌ بعد زلة، ومشاورةٌ بعد خطأ، ليعلموا أن التربية القرآنية لا تُقصي المخطئ إذا صدق، بل تُهدِّبه وتعيده إلى موقعه.

ثم جاءت لمسة الرحمة العملية بعد الشدة:
﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾. (154)
كان النعاس أمنةً وسكينةً ألقاها الله في قلوب من شاء أن يرحمهم، فسكنت جوارحهم بعد الاضطراب. وأما طائفةٌ أخرى فلم تغشها تلك السكينة، إذ ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾، فبقي القلق في صدورهم. وهنا يظهر الفرق بين قلبٍ عاد سريعاً إلى الله فاستحق الرحمة، وقلبٍ ظل مشغولاً بنفسه وظنونه.

ولكي لا يتحول هذا المشهد إلى انكسارٍ دائم، تضع السورة أمام الأمة نموذجاً ممتداً في تاريخ الأنبياء:
﴿وَكَايَن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾. (146)
لم يكن طريقهم مفروشاً بالنصر الدائم، ومع ذلك:
﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ... وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾.
وكان منهجهم عند الشدة:
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.
بدأوا من الداخل قبل الخارج، واعترفوا بالتقصير قبل طلب النصر. وهذا هو قلب مدرسة أحد: إذا وقع خلل، ففتش عن نفسك أولاً.

ثم يعيد القرآن تعريف الحياة والموت:
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. (169)
الميزان ليس من بقي في ساحة المعركة، بل من بقي عند الله.
وهكذا يكتمل مشهد التمحيص: تداولٌ في الأيام، كشفٌ للقلوب، عتابٌ يُطهر، رحمةٌ تُسكن، عفوٌ يُعيد الثقة، ونموذجٌ ربانيٌّ يعلم منهج التعافي بعد الانكسار. وبعد أن صُحِّح الداخل، وطُهر الصف، واستقر ميزان القلب، يأتي الانتقال الطبيعي إلى قوله تعالى:
﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾،
ليكتمل تطهير الباطن من آخر أثرٍ لتعلق الدنيا في لحظة الغنيمة.

تصفية القلوب بعد المعركة

قال تعالى:
﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يُغْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. (161)
تأتي هذه الآية بعد مشهد التنازع والطمع في الغنيمة، وكأنها ليست تعقيباً عابراً، بل تطهيراً عميقاً لما بقي في النفوس من أثر المعركة. وقد ذُكر في سبب نزولها أن بعضهم ظنَّ تأخر القسمة أو أن أحداً حُصَّ بشيء، فجاء البيان قاطعاً: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ﴾.

لكن المعنى يتجاوز السبب؛ ف"الغلول" ليس مجرد أخذ مالٍ خفية، بل صورة من صور تعلق القلب بالدنيا في موطنٍ يفترض أن يكون لله خالصاً. وفي القسم الأول من السورة قيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾، وفي أحد كاد بعض المؤمنين أن يضعفوا حين لاح بريق الغنيمة؛ فجاء هذا التصحيح يرد الميزان إلى موضعه: الرسالة أعلى من الغنيمة، والنبوة أنزه من الشبهة، ومن حمل راية السماء لا يختلط عنده ميزان الدنيا بميزان الوحي.

ثم يتسع التحذير ليشمل الجميع: ﴿وَمَنْ يُغْلَلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي أن كل خيانةٍ صغيرة، وكل تعلقٍ خفي، سيظهر يوم العرض الأكبر. ثم تختتم الآية بميزان العدل: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

في بدر كان النصر، وفي أحد كان الابتلاء، وهنا يكون تصحيح الداخل. فالسورة لا تُبرر الخطأ، ولا تُسقط المخطئ، بل تُطهر الصف وتُعيده إلى صفاء المقصد.

(165-179) حين تُسأل الأمة عن نفسها... لا عن عدوها

قال تعالى:

﴿أَوْلَمَّا أَصَابْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا فُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. (165)

هذا هو السؤال الفاصل. بعد أحد لم يبدأ القرآن بتحليل حركة العدو ولا بتفصيل خطئه، بل أعاد البوصلة إلى الداخل: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. ليست المشكلة في قوة الخصم، بل في لحظة ضعفٍ داخلي، وليست في قلة العدد، بل في مخالفة الأمر. وهنا تبلغ التربية القرآنية ذروتها: ابدأ بنفسك.

ثم يقرر أن ما وقع لم يكن عبثاً ولا صدفة: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَبُوا﴾ (166-167). الابتلاء تمحيص، والشدة كاشفة؛ تكشف الصادق من المدعي، والمخلص من المتردد.

ومن لطيف التدبر في مشهد أحد أن خطاب القرآن للمؤمنين جاء على ثلاثة مستويات بحسب أحوالهم يوم الفتنة:

خطابٌ شديدٌ لمن انتكسوا ورجعوا أو مالوا إلى أهل النفاق وتخلّفوا،

وخطابٌ عتابٍ لمن خالفوا الأمر وتركوا مواقعهم أو ولّوا مدبرين في لحظة الاضطراب،

ثم خطابٌ تسليّةٍ ورفع معنوياتٍ للفئة التي ثبتت مع رسول الله ﷺ وصبرت.

ولهذا ترى في سياق الآيات ذمّاً وعتاباً وتثبيتاً في آنٍ واحد؛ ففي العتاب قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾، ثم قوله: ﴿فَأَنبَأَكُمْ غَمًّا بَعَثَ﴾ (آل عمران: 153)، فيجتمع غمٌّ ما أصابهم من الجراح والانكسار، ثم غمٌّ آخر أشدّ حين اضطربت النفوس وشاع خبر مقتل النبي ﷺ، ليعلم الله القلوب أن ميزانها لا يقوم على الشائعات ولا على الأسباب وحدها، بل على اليقين والاتباع والطاعة.

ثم تأتي لمسة الرحمة بعد الشدة: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِيثُ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ (آل عمران: 154). هذا النعاس ليس تفصيلاً عابراً، بل "أمنة"؛ سكينه يذفها الله في قلوب من صدق وثبت، فيسكن روعهم ويستقيم باطنهم. وأما طائفة أخرى فاشتغلت بأنفسها، فدل ذلك على أن رحمة الله إذا أرسلها فلا ممسك لها، وإذا أمسكها فلا مرسل لها من بعده؛ يعطي الأمنة لمن شاء بحكمته، ويرفعها عمن شاء بحكمته، ليظهر الفرق بين قلبٍ ثابتٍ وقلبٍ متردد.

ثم تضع السورة أمام الأمة نموذجاً خالداً بعد كل انكسار، نموذج "الربانيين" مع أنبيائهم، لتقول: ليست الهزيمة نهاية الطريق، بل محطة تربية لمن أراد الله به خيراً. قال تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. (146-147)

لاحظ المنهج: لم يقولوا "لماذا حدث هذا؟" ولم يلحقوا التبعة على العدو، بل بدأوا من الداخل: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾. هذا هو درس أحد الحقيقي: إذا وقع خلل، ففتش عن نفسك أولاً.

ثم يرفع القرآن ميزان الحياة والموت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا﴾ (169).

في لحظة الانكسار الظاهري يعيد القرآن تعريف "الخسارة": فالمعيار ليس من بقي في الميدان، بل من بقي عند الله. ثم يأتي مشهد الثبات بعد التهديد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فَانصُرُوهُمْ قَرَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ (173). بعضهم حين رأى الغنيمة أراد الدنيا، وبعضهم حين رأى التهديد ازداد إيماناً؛ وهنا يتبين أن المعركة ليست في السيوف وحدها، بل في القلوب أولاً.

ثم يختم هذا المشهد بمفتاح الفهم كله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (179). أحد لم تكن سقوطًا، بل فرارًا، ولم تكن نهاية، بل تصفية. وكما أن في القلوب زيغًا يظهر عند المتشابه، فإن في الصفوف ضعفًا يظهر عند الشدة؛ وكلاهما يُعالج بالرجوع إلى الله.

خلاصة مشهد أحد

الهزيمة ليست نهاية الطريق، بل درس في الطريق. والنصر لا يُحفظ إلا بالطاعة. والغنيمة ليست غاية الرسالة. والابتلاء سنة ملازمة للاصطفاء، يميز الله بها الخبيث من الطيب، ويعيد بها القلوب إلى أصلها: الصدق مع الله.

(190-200) من النظر في الكون... إلى الثبات حتى النهاية

تختم السورة بنقطة هادئة عميقة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (190). بعد جدلٍ وحججٍ ومباهلةٍ ومعركةٍ ودماء، تعود السورة إلى التأمل؛ كأنها تقول: من لم يثبت في الميدان فليعد إلى أصل اليقين.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا...﴾ (191). هؤلاء هم الذين لا ينهزمون داخليًا، أصحاب ذكرٍ وفكرٍ معًا. ثم يربط الدعاء بين السورة كلها: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ قَامَةً﴾ (193). في البقرة كان العنوان: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهنا: سمعنا قَامًا؛ فالإيمان استجابة واعية لا تقليدًا عاطفيًا.

ثم يأتي الوعد بعد أحد وبعد الجراح: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ﴾ (195). لا دم يضيع، ولا دمة تضيع، ولا صبر يضيع. ثم يعود التحذير من الاغترار:

﴿لَا يَغْرُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (196). في أول السورة: ﴿لَنْ نُّغْنِي عَنْهُمْ آمْوَالَهُمْ﴾، وفي آخرها: لا يغرنك تقلبهم؛ الدنيا حركة عابرة، والعاقبة ليست لها.

ثم يأتي الختام الذي يجمع السورة كلها في أربع كلمات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (200). اصبروا: على أنفسكم. وصابروا: أمام عدوكم. وربطوا: اثبتوا في مواقعكم ولا تتركوا الثغر كما كان يوم أحد. واتقوا الله: فهذا هو الأصل الذي بدأت به السورة.

صورة السورة كاملة

بدأت ب: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وانتهت ب: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. بدأت بتصحيح العقيدة، ثم بإقامة الحججة، ثم بكشف الزيغ، ثم بامتحان الصف، ثم بتطهير القلوب، ثم ببدء الثبات.

سورة آل عمران ليست مجرد ردٍّ على أهل الكتاب، وليست فقط تحليلًا لمعركة أحد، بل منهجٌ تثبيتي: ثباتٌ في العقيدة، وثباتٌ في الميدان، وثباتٌ في القلب. تعلمك أن الاصطفاء يسبقه ابتلاء، وأن النصر لا يُحفظ إلا بالطاعة، وأن الفلاح ليس وعدًا عاطفيًا، بل ثمرة صبرٍ ومصابرةٍ ورباطٍ وتقوى... حتى النهاية.